

رمضان خارج المؤلف

أحمد بن حامد الغامدي

2019-05-08

في مطلع شهر رمضان المبارك العام قبل عامين نشر رائد الفضاء الأمريكي سكوت كيلي تغريدة تويتر تحتوي على صورة فوتوغرافية التقطها من الفضاء لمكة المكرمة وذلك بهدف تهنئة المسلمين بحلول شهر رمضان المبارك. الاحتفال بالشهر الفضيل من الفضاء حدث غير عادي ولكنه ليس نادر الحدوث تماماً فقبل حوالي عشر سنوات احتفل رائد فضاء آخر بشهر رمضان بمناسبة رمضانية مختلفة حيث حاول الصوم في الفضاء رائد الفضاء الماليزي مظفر شكور المشارك في رحلة فلكية إلى محطة الفضاء الدولية في أواخر شهر رمضان من عام 2007م. لقد حرص مظفر شكور على حسن أداء العبادات الشرعية في الفضاء ولهذا استعان بفتاوى خاصة من مجلس الفتوى الوطني في ماليزيا لإرشاده لكيفية ضبط تحديد مواقيت الصلاة والصيام وقيام الليل (فضلاً عن تحديد القبلة) في محطة الفضاء الدولية التي يتوالى الليل والنهار فيها كل 90 دقيقة !!

الجدير بالذكر أنه قبل الفتوى الفضائية الماليزية بحوالي عشرين سنة حرص الأمير الشاب سلطان بن سلمان أن يستفتي سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز عن عين تلك الأمور الشرعية المستحدثة حيث كان من المتوقع أن تنطلق رحلته الفضائية عبر ماكوك الفضاء ديسكفري في يوم 26 رمضان من عام 1405هـ، إلا أن الرحلة تأجلت قليلاً، ولهذا انطلق الأمير للفضاء في آخر يوم من رمضان. وإذا كان الأمير سلطان بن سلمان هو أول رجل مسلم يصعد إلى الفضاء، فإن أول امرأة مسلمة تغزو الفضاء هي رائدة الفضاء الإيرانية أنوشة أنصاري ذات

=src

الجنسية الأمريكية والتي تعتبر كذلك أول (سائحة فضاء) في التاريخ، حيث أنها دفعت حوالي عشرين مليون دولار لكي تقوم بهذه المغامرة الفلكية المذهلة. بقي أن نقول إن الرحلة (السياحية) لهذه السيدة الفضائية المسلمة بدأت في يوم 26 رمضان من عام 1427هـ وبالرغم من أنها اخترقت أجواء السماء في ليلة القدر إلا أنه للأسف لا توجد أي أخبار صحفية عنها تشير هل مارست أي من الشعائر الدينية في الفضاء، بل لا نعلم إن كانت على الأقل قد احتفلت بعيد الفطر المبارك في محطة الفضاء الدولية.

رمضان في أرض غريبة

لا شك أن الأجواء الرمضانية في ماكوك الفضاء أو محطة الفضاء الدولية بالقطع لها طابعها الخاص ولهذا صرح رائد الفضاء الأمير سلطان أن (صيام شهر رمضان في الفضاء تجربة لا تُنسى) لكن الحصول على تجربة فريدة ومغامرة شيقة في رمضان قد يمكن تحقيقها دون التحليق مع النجوم. من ذلك مثلاً، أن تذهب في مغامرة لصعود قمة جبل إيفرست كما فعل مجموعة من الشباب الخليجي الذين تسلقوا أعلى قمة في سلسلة جبال الهيمالايا في أواخر شهر رمضان من عام 1433هـ وقد عاشوا مشاعر إيمانية عالية عندما قام أحدهم برفع صوت الأذان في نهار شهر رمضان ومن فوق أعلى قمة على سطح الأرض، وبهذا قد يكون هذا هو أقرب صوت للأذان إلى أبواب السماء. في حسنا الجمعي ارتبط شهر رمضان بالصيف والحر والعطش ولهذا كان من (خارج المألوف) ارتداء الملابس الثقيلة وحمل اسطوانات التنفس بين ثلوج قمم الجبال في شهر رمضان ومع تزايد شعبية تسلق الجبال الشاهقة بين جموع الشباب العربي والمسلم من المحتمل تكرار مثل هذه المشاهد في شهر رمضان المبارك لأن تسلق هذا الجبال أسهل في الغالب في شهور الصيف.

وعلى نفس النسق في الخروج عن المألوف في تجربة الأجواء الرمضانية بين الثلوج والزمهريز بدأت كذلك تنتشر ظاهرة توجه أفراد من الرحالة العرب لزيارة القطب المتجمد الشمالي بل وحتى القطب المتجمد الجنوبي الأكثر بعداً والأكثر خطورة والأشد برودة. وبحكم توافق شهر رمضان في هذه السنوات مع فترة الصيف تزداد احتمالية رغبة بعض الرحالة والسياح العرب تجربة الصيام في أرض الجليد. في واقعنا المحلي كان أول من وصل إلى القطب المتجمد الجنوبي، هما الدكتور مصطفى معمر من جامعة الملك عبدالعزيز والدكتور إبراهيم عالم من جامعة الملك فهد واللذان شاركا في 1989م في رحلة علمية دولية استكشافية للقطب المتجمد الجنوبي استمرت لثلاثة أشهر انتهت في مطلع شهر رمضان المبارك من تلك السنة. الجدير بالذكر أن الرحلات الاستكشافية العلمية العربية للمناطق المتجمدة محدودة ومتقطعة منذ أن بدأها العالم المصري الدكتور سيد زكريا السيد بزيارة القطب المتجمد الجنوبي وحتى نهايتها بمشاركة الدكتور عبدالعزيز اللعوبون من قسم الجيولوجيا بجامعة الملك سعود في رحلة استكشافية دولية للقطب المتجمد الجنوبي عام

2014م. ومع ذلك تبقى التجربة المتميزة في هذا الشأن في العالم الإسلامي من نصيب تركيا، حيث تخطط جامعة إسطنبول التقنية بافتتاح محطة أبحاث علمية دائمة لها في القطب المتجمد الجنوبي بدلاً من التعاون العلمي المؤقت مع الدول الأخرى. وبحكم أن تشغيل هذه المحطة الدائمة غالباً سوف يتم في شهور الصيف وبهذا سوف تكون الفرصة شبه مؤكدة لوجود مسلمين في قلب القارة المتجمدة قد يرغبون بصيام شهر رمضان في هذه الأرض الغريبة.

من جانب آخر ومنذ عقود طويلة تنشط بعض الشركات السياحية الغربية في تنظيم رحلات سياحية للوصول للدائرة القطبية أو حتى لأطراف القارات المتجمدة الشمالية بالذات، وكذلك الجنوبية. وبهذه المناسبة تجدر الإشارة إلى إن المغامر السعودي وليد زاهد قد وصل في عام 2010 هو وولديه هيثم ومحمد إلى مركز القطب في القارة المتجمدة الجنوبية.

لكن يبقى مع ذلك لأي سائح أو مغامر الاستعداد لحالة الإرباك الحتمية فيما يتعلق بأداء الشعائر التعبدية في منطقة القطبين المتجمدة، ففي فصل الصيف من المحتمل في بعض المناطق أن لا تغيب الشمس على الإطلاق أو في أحسن الأحوال يكون الليل لمدة أقل من ساعة، علماً أنه لن يوجد ظلام الليل المعتاد وإنما ظلال الفسق الداكنة. وعليه في مثل هذه البيئة الفرائضية البعيدة عن المألوف يصعب تحديد أوقات الصلوات أو تحديد زمن الصيام وبدء لحظة الإفطار أو الإمساك. وتجدر الإشارة بهذه المناسبة أن الجالية الإسلامية في مدينة أولو بشمال فنلندا أو في منطقة نونوفت بأقصى شمال كندا طلبوا فتاوى شرعية خاصة لمشكلة أن النهار في رمضان لديهم قد يصل لمدة 23 ساعة في حين أن بعض المسلمين بمدينة نوريلسك في سيبيريا الروسية قد يصومون لمدة 21 ساعة باليوم!!

رمضان في الغربة كربة

إذا كان صيام رمضان في الفضاء تجربة لا تنسى فدرجة أقل تجربة الصيام في أرض الصقيع وفي بلاد غريبة تجربة تستحق الذكر والتوثيق. ومن أقدم ما نقل لنا في هذا السياق تجربة الرحالة العربي القديم أحمد بن فضلان إلى بلاد البلغار والروس، وما يهمنا هنا أنه في عام 309 هجري داهم فصل الشتاء ابن فضلان ورفاقه وهم في مدينة جرجانية غرب أوزباكستان، وهنا يصف ابن فضلان كيف أن نهر جيحون جمد من شدة البرد والصقيع لدرجة أن الخيل والبغال أصبح بإمكانها المشي فوقه. ويصف ابن فضلان أنه من شدة البرد (.. كنت أخرج من الحمام فإذا دخلت البيت نظرت إلى لحيتي وهي قطعة واحدة من الثلج حتى كنت أدنيها من النار) وفي موضوع آخر يصف الملابس الثقيلة التي كانوا يحتاجونها لاتقاء الزمهرير (.. كان كل رجل منا عليه قرطق وفوقه خفان وفوقه بوسيتين وفوقه لبادة وبرنس ولا تبدو منه إلا عيناه، وسراويل طاق وآخر مبطن واران وخف كيمخت وفوق الخف خف آخر فكان الواحد منا إذا ركب

الجمل لم يقدر أن يتحرك لما عليه من الثياب). وبسبب أن البرد والصقيع منع ابن فضلان ورفاقه من إكمال سفرهم إلى بلاد الصقالبة لذا أدرك شهر رمضان ابن فضلان وهو في هذه الأجواء الرمضانية الشتوية.

أخبار وقصص رواد الرحالة العرب زاخرة بالعديد من التشويق ومع ذلك قد لا يعتبر وصف ابن بطوطة مشاهداته للمدن التي توافق مروره بها أثناء شهر رمضان (في سنوات مختلفة) مثل مكة المكرمة ودمشق والقاهرة، لا يعتبر من الأمور (خارج سياق المؤلف) بحكم أنها بلاد عربية أصيلة ومعروفة بشكل كامل. لكن في المقابل نجد أن وصف الرحالة ابن جبير الأندلسي لزيارته غير المتوقعة لجزيرة صقلية في شهر رمضان ينطبق وصفها على حديثنا هنا عن (رمضان خارج النسق). في عام 578 هجري سافر ابن جبير الأندلسي لأداء فريضة الحج وفي طريق العودة إلى الأندلس كان قراره (خارج المؤلف) أن يسافر على سفينة إيطالية من ميناء مدينة عكا (في حينها ما زالت تحت حكم الصليبيين) بدل أن يبحر مثلاً من الإسكندرية وباستخدام سفينة عربية. وعلى كل حال ونظراً لهبوب عاصفة بحرية هوجاء كاد القارب أن يغرق بهم قرب ساحل جزيرة صقلية لولا إغاثة ملك الجزيرة (العاشق للعرب) لهم حيث أشرف بنفسه على عمليات الإنقاذ واستقبل جميع الركاب من العرب والفرنجة استقبلاً حسناً. وكان نزولهم للسواحل الصقلية في مطلع شهر رمضان من ذلك العام حيث نزلوا بمدينة مسينه والتي وصفها بأنها (وليس فيها من المسلمين إلا نفر يسير من ذوي المهن ولذلك يستوحش بها المسلم الغريب) وهي بهذا على النقيض من عاصمة البلاد مدينة باليرمو التي بها جالية إسلامية كبيرة لدرجة أن لهم فيها أسواق خاصة فضلاً عن مساجدهم الكثيرة. ويذكر ابن جبير أن ملك صقلية المدعو غليام يكثر من استعمال المسلمين (وهو كثير الثقة بالمسلمين وساكن إليهم في أحواله والمهم من أشغاله) ليس هذا فحسب فهذا الملك (أما جواريه وحظاياه في قصره فمسلما كلهن) ويبدو أن تلك الجوارى على ديانة حسنة لدرجة (أن الإفرنجية من النصرانيات تقع في قصره فتعود مسلمه) من تأثير الجاربات المسلمات. ومن أغرب ما ذكر ابن جبير عن هذا الملك المتسامح مع دين الإسلام أنه حصل مره زلزال بالجزيرة وعندما خاف الجميع تفاجأ الملك أنه عندما (كان يتطلع في قصره فلا يسمع إلا ذكراً لله ولرسوله من نسائه وفتيانه).

بهذه الأجواء المرحة والمتسامحة مع الوجود الإسلامي نفهم أن وجود الجاليات المسلمة في ديار الغرب ظاهرة قديمة جداً، ونفهم في نفس السياق لماذا أقام الجغرافي والرحالة العربي الكبير الإدريسي لسنوات طويلة في جزيرة صقلية في كنف ملكها روجر الثاني. وللأسف، نكشف معلومة (معروفة للبعض) أنه لهذا الملك المسيحي قام الإدريسي بتأليف كتاب المشهور نزهة المشتاق في اختراق الآفاق والذي يعرف كذلك باسم (كتاب روجر). ليس هذا وحسب، بل أن (خريطة الإدريسي) الفائقة الشهرة كانت بطلب مباشر من

الملك روجر للإديسي بأن يصنع له خريطة وكره من الفضة على هيئة أقاليم الأرض السبعة. الجدير بالذكر أن الإديسي توفي في جزيرة صقلية عام 560م أي قبل وصول ابن جبير لها بثمانية عشر سنة، وبعد هذا التاريخ بأكثر من قرنين من الزمان سوف تحصل قصة من أغرب القصص عن رجال وجغرافي عربي آخر يدعى الحسن الوزان الأندلسي (أو ليون الإفريقي كما يعرف في الغرب). تبدأ القصة العجيبة للحسن الوزان عندما عاد من الحج وكما تعرض ابن جبير للتوقف في صقلية توقفت سفينة الحسن الوزان في جزيرة جربة بتونس وهناك تعرض للخطف والأسر من قبل القراصنة الإيطاليين واقتيد لاحقاً إلى مدينة روما كهدية للبابا ليون العاشر الذي أجبره على اعتناق المسيحية وتغيير اسمه إلى ليون الإفريقي. وبعد أن أقام الوزان لسنوات طويلة في الأسر في روما وقام بتأليف العديد من الكتب أهمها كتاب الجغرافي (وصف أفريقيا) يقال أنه بعد وفاة البابا ليون العاشر سُمح أخيراً لسميه ليون الإفريقي بالرجوع إلى تونس وهنا استعاد شخصيته الإسلامية وديانته. السؤال الآن، هل كان الحسن الوزان أثناء حياة الإقامة الجبرية في روما يصوم شهر رمضان بالخفية وهذا أمر يصعب الجزم به، ولكن أسير عربي آخر أقام لعدة سنوات في الحبس في أرض الفرنجة ومع ذلك كانت أشعاره توحى بارتباطه بشعائر دينه وعادات أهله. وهذا ما حصل مع الشاعر العربي الكبير أبي فراس الحمداني الذي كما هو معلوم وقع هو الآخر في الأسر على يد الروم ونقل للحبس في مدينة روما الشرقية (مدينة القسطنطينية) التي أقام فيها لمدة قاربت الأربع سنوات وهناك من رجم المعاناة والمأساة ولدت قصائد ((روميات)) أبي فراس الرائعة. ما أصعب الذكريات على الأسير والغريب ولهذا يكون حالهم بعد أن يتقضى شهر الصيام وتحل فرحة العيد كما قال الأول:

هذا هو العيدُ أين الأهلُ والفرحُ ضاقت به النفسُ أم أودت به القرخُ
وأين أحبابنا ضاغت ملامحهم من في البلاد بقي منهم ومن نزحوا

ولهذا كان من الأبيات الشعرية التي جادت بها قريحة أبي فراس الحمداني عندما حل عليه عيد الفطر وهو في الأسر:

يا عيدُ ما عُدتِ بمحبوبٍ على فُعنَى القلبِ، مكروبٍ
يا عيدُ قد عُدتِ على ناظِرٍ عن كل حسنٍ فيك، محجوبٍ

شهر الصيام بعيون غربية

وفي الختام بعد أن عرجنا لذكر طرف مختصر عن ذكريات الرحالة العرب مع شهر الصيام لعلنا نختم بتوجيه الأنظار لزاوية رؤية مختلفة تتمثل في الشهادات التي سطرها الرحالة الغربيين والمتعلقة بشهر رمضان في البلاد العربية التي زاروها. من ذلك مثلاً، أن الرحالة الانجليزي تشارلز داوتي في كتابه (ترحال في صحراء

العرب) ذكر أنه عندما كان في صحراء تيماء مع البدو في حدود عام 1876 وحلّ عليهم شهر رمضان حصل نقاش بين البدو حول ظهور العلامات الكافية لثبوت دخول الشهر. بل أن النقاش بينهم وصل لدرجة أن بعض الحاضرين رد بقوله (بأن الناس في المدن يعتمدون على الحساب الهندي في تحديد الشهر وإن ذلك الحساب دقيق ولا يخطئ مطلقاً)، وكأن حال بدو العرب لم يتغير منذ قرون فيما يتعلق بالجدال المتواصل حول رؤية الهلال. ومن غرائب الصدفة أنه في نفس تلك السنة أي عام 1876 كان القنصل الأمريكي ألبرت فارمان يسجل انطباعاته عن مظاهر الاحتفال بدخول شهر رمضان في مدينة القاهرة وكيف أن الرجال يخرجون للتلال العالية خلف قلعة صلاح الدين لتراخي هلال رمضان (وفور ثبوته يعودون بالبشرى، وتسير المواكب الرسمية والشعبية المبتهجة في أرجاء القاهرة معلنة بدء صيام رمضان).

بدون منازع قد يكون الرحالة السويسري يوهان بوركهارت أهم =src مستكشف أوروبي زار البلاد العربية (اشتهر باكتشافه المزعوم للبتراء في الأردن ومعبد أبو سنبل الفرعوني في أسوان) كما يعده البعض أول رجل غربي يؤدي فريضة الحج. ومن حسن الطالع كذلك أنه وصل لمدينة مكة المكرمة في عام 1814 في بداية شهر رمضان المبارك وبهذا رصد في كتابه البالغ الأهمية (رحلات في شبه الجزيرة العربية) كيف يحتفي أهل مكة بدخول الشهر الكريم وذلك من خلال (إضاءة جميع مصابيح القناطر المعلقة في قباب الحرم والتي يبلغ عددها 152 قبة) وفي هذه الأجواء الرمضانية الباهرة عقد بوركهارت مقارنة بين تجمع الناس في الحرم في ليالي رمضان وبين التجمعات الليلية الأوروبية.

وبحكم أن الصورة تغني عن ألف كلمة كما يقال فلعلنا نختم موضوع نظرة الغربيين عن شهر رمضان بأمر يتعلق بالمشاهدة الفعلية وليس الوصف المكتوب ولهذا من الملائم الإشارة إلى اهتمام بعض فناني الرسم الاستشراقي بتوثيق الشعائر الدينية الإسلامية في لوحاتهم الفنية. وربما من أهم من يمكن ذكره في هذا المجال الرسام التشكيلي الفرنسي إتيان دينيه الذي اعتنق الإسلام عام 1913 وغير اسمه إلى ناصر الدين دينيه، وقد تميز بشكل خاص بتوثيق المواضيع الدينية والشعائر التعبدية لدى المسلمين في الصحراء الجزائرية. وقد خص ناصر الدين دينيه طقوس شهر رمضان وعاداته بالعديد من اللوحات الفنية ومن أشهرها لوحة (سحور رمضان) ولوحة (غداة رمضان) ولوحة (مراقبة هلال العيد) ولوحة (بعد رمضان).

البريد الالكتروني للكاتب: ahalgamdy@gmail.com

Arab Scientific Community Organization (ARSCO) · arsko-ai.org